مدارس الحيرة ، الخط الحيري ، الشعر والامثال والخطابة

بقلم يوسف غنيمه (بغداد)

٣

(تتمة)

الشعر العربي في الحيرة (تتبع)

وهناك آخر من اصحاب المعلقات زار الحيرة ووفد على ملكها اللخمي ، أريد به لَبيد بن ربيعة[1] المتوفى سنة ٦٧٥ م. فهو احد شعراء الجاهلية والمخضرمين. وهو من اشراف الفرسان المجيدين. قال ابو الفرج الاصبهاني: دخل لبيد بن ربيعة على النعمان مع عامر بن مالك ملاعب الاسنة ، وكان يكنى ابا البراء ، في رهط من بني جعفر ومالك بن جعفر وعامر بن مالك عم لبيد ، فوجدوا الربيع بن زياد العبسي وامه فاطمة بنت الخُرشب . وكان الربيع نديماً للنعمان مع رجل من تجار الشام يقال له زوجون بن نوفل ، وكان حريفاً للنعمان يلاعبه . وكان الربيع يوغر صدر النعمان على الجعفريين حتى رأوا منه بغضاء وحدوداً ثقل عليهم . فبينما كانوا يتفاوضون يوماً بهذا الامر سمعهم لبيد ، وكان متخلفاً عنهم يحفظ ابلهم ولم يوافقهم الى النعمان ، فطلب اليهم ان يدخلوه الى النعمان ليوقع بالربيع . فاجابوه وادخلوه على النعمان . فوجده يتغدى ومعه الربيع ، وهما يأكلان لا ثالث لهما ، والدار والمجالس مملوءة من الوفود . فلما فرغ من الغداء اذن للجعفريين فدخلوا عليه فذكروا الذي قدموا له من

---

١) الاغاني ١٤ : ٦٠ ؛ وزيدان : الاداب العربية ١ : ١١١ ؛ والعمدة ١ : ٣٦ ؛ والروائع ٢٤

حاجتهم ، فاعترض الربيع بن زياد في كلامهم . فقال لبيد ابياتاً من الشعر في هجاء الربيع وذمّه وذكر فيه برصاً وانه غير نظيف . فسمّه الربيع . واثر كلام لبيد في النعمان وتغيّرت نفسه من عشرة الربيع فصرفه عنه وعن بلاده . واراد الربيع ان يتنصّل من الوصمة التي وصمه بها لبيد الا ان النعمان اجابه :

قد قيل ذلك ، ان حقاً وان كذباً ، فما اعتذارك من قول اذا قيلا ؟

وروي ان النابغة رأى لبيداً وهو صبي يخرج من عند النعمان ، فقال له : الي ، يا ابن اخي ، فاتاه ، فقال : انشدني . فانشده قوله :

ألم تسلم على المعن الحوالي لسلمى بالمذانب فالفقال ؟

فقال له النابغة : انت اشعر بني عامر ، ازدني . فانشده :

طلل لحولة بالرسيس قديم بحاقل فالاقحبين وشوم

فقال له : انت اشعر هوازن ، ازدني . فانشده :

عفت الديار محلها فمقامها بمنى تأبد غولها فرجامها

فقال له : اذهب فانت اشعر العرب !

وذكروا ان عمر بن الخطاب بعث الى المغيرة بن شعبة ، وهو على الكوفة ، يقول له : استنشد من قبلك من شعراء مصرك ما قالوا في الاسلام . فارسل الى لبيد وقال : انشدني ما قلته في الاسلام . فكتب سورة البقرة في صحيفة ثم اتى بها وقال : ابدلني الله هذا في الاسلام مكان الشعر .

ووفد حسّان بن ثابت ، المتوفى سنة ٦٧٢ م ، على النعمان بن المنذر . وهو من الخزرج ومن المخضرمين[1] . واشتهر في الجاهلية بمدح ملوك غسان وملوك الحيرة وله مع النابغة الذبياني احاديث . واختصّ بعد الاسلام بمدح النبي والدفاع عنه ، وهو يُعدّ اشعر اهل المدن في ذلك العصر .

قال حسّان : قدمتُ على النعمان بن المنذر وقد امتدحته . فاتيت حاجبه عصام بن شهيرة فجلستُ اليه . فقال : اجئت بمدحة الملك ؟ قلت : نعم . قال : فاني ارشدك اذا ادخلت عليه فانه يسألك عن جبلة بن الايهم ويشبّه

---

١) الاغاني ٩ : ١٦٤ ؛ وزيدان : الاداب العربية ١ : ١٥٢ ؛ والعقد الفريد ١ : ١٧٥ .

فاياك ان تساعده على ذلك ، ولكن امر ذكره سراراً لا توافق فيه ولا تخالف وقل : مـا دخول مثلي ايها الملك بينك وبين جبلة وهو منك وانت منه . واذا دعاك الى الطعام فلا تؤاكله فان اقسم عليك فاصب منه اليسير . ولا تطل محادثتـه ، ولا تبدأه باخبار عن شيء حتى يكون هو السائل لك ولا تطل الاقامـة في مجلسه . فقلت : احسن الله رفدك . ودخل ثم خرج الي فقـال لي : ادخل . فدخلتُ ، فسلمت تحية الملوك ، فجاراني من امر جبلة ما قاله عصام كأنه كان حاضراً واجبت بما امرني به . ثم استأذنته في الانشاد فأذن لي . وامر لي بالطعام والشراب ففعلتُ مثل ذلك . فامر لي بجائزة سنية . وخرجتُ فقال لي عصام بقيت عليَّ واحدة لم أوصك بها . قد بلغني ان النابغة الذبياني قدم عليه ، واذا قدم ليس لاحـد منه حظ سواه فاستأذن حينئذٍ ، وانصرف مكرَّماً خير من ان تنصرف مجفوّاً .

وهذا يزيد بن عبد المدان[1] (٦١٥ م) من مذحج ذكر النعمان بن المنذر غير مرة في شعره ومن ذلك قوله معيّرًا عامر بن الطفيل :

كانت اناوة قومه لمحرّق زمناً وصارتْ بعدُ للنعمان

فقال عامر بن الطفيل :

عجباً لواصف طارق الاوزان ولما تجيء به بنو الديّان
فخروا عليَّ بجبوة لمحرّق واناوة سبقت الى النعمان
ما انت وابنُ محرّق وقيامه واناوة اللخميّ في غيلان

روى ابن الكلبي ان ابن جفنة سأل التيميين في مجلس حضره يزيد بن عبد المدان ، شاعرنا هذا ، عن النعمان بن المنذر ، فعابوه وصغّروه . فنظر ابن جفنة الى يزيد فقال له : ما تقول يا ابن عبد المدان ؟ فقال يزيد : يا خير الفتيان ليس صغيراً من منعك العراق وشركك في الشام ، وقيل له ابيت اللعن ، وقيل لك يا خير الفتيان ، والفى اباه ملكاً كما الفيت اباك ملكاً . وايم الله ما فيهم رجل الا ونعمة النعمان عنده عظيمة . . . وقال يزيد بن عبد المدان شعراً

---

١١ الاغاني ١٠ : ١٤٠ ؛ وشعراء النصرانية ٨١

فيما كان بينه وبين القيسي عامر بن مالك الذي كان حاضراً وغضب ، واليك الشعر :

تعالى على النعمان قوم اليهم ... موارده في مُلكه ومصادرُهْ
على غير ذنب كان منه اليهم ... سوى انه جادت عليه مواطرهْ ،
فباعدهم من كل شرّ يخافه ... وقرّجم من كل خير يبادره .
فظنوا ، واعراض المنون كثيرة ، ... بأن الذي قالوا من الامر ضائرهْ
فلم ينقصوه بالذي قيل شعرةً ... ولا فُلّت انيابه واظافره ،
والحرث الجفني اعلم بالذي ... يسُوء به النعمان ان جفّ طائره
فيا جار ، كم فيهم لنعمان نعمةٌ ... من الفضل والمن الذي انا ذاكره ،
ذنوباً عفا عنها ، ومالاً افاده ، ... وعظماً كسيراً فوّمته جوابره ،
ولو سال عنك الناثبين ابنُ منذرٍ ... لقالوا له القول الذي لا يحاذره .

زهير بن ابي سلمى[1] وهو من مزينة احدى قبائل مضر . ومما ينسب اليه قصيدة ذكر فيها النعمان بن المنذر حين طلبه كسرى ليقتله ومدح بني رواحة من بني عبس الذين ارادوا ان يجيروا النعمان ، وقد نسب بعضهم هذه القصيدة الى صرمة الانصاري . ومطلعها :

الا ليت شعري هل يرى الناس ما ارى ... من الامر او يبدو لهم ما بدا ليا

الى ان قال :

ألم تر للنُعمَان كان بنجوةٍ ... من الشرّ ، لو ان امرءاً كان ناجيا ،
فغيّر منه ملكَ عشرين حجّةً ... من الدهر يوم واحد كان غاويا ،
فلم ار مسلوباً له مثل مُلكه ... اقلّ صديقاً باذلاً او مُواسيا !
فاين الذين كان يعطي جيادَه ... بارماحهنّ والحسان الغواليا ؟
واين الذين كان يعطيهم القرى ... بنسلانهنّ والمئين الغواديا ؟
واين الذين يضربون جفانه ... اذا قدّمت القوا عليها المراسيا ؟

نجتزئ بهذه الامثلة من شعراء الجاهلية الذين كان لهم مختلف الصلات بالحيرة وملوكها ، ولاسيما في القرن السادس . وهناك رهط آخر من الشعراء في الجاهلية والاسلام ممن ذكروا الحيرة وملوكها وحروبهم وقصورها وديراتها وخماراتها كطخيم الطخا الاسدي ، وابي الطمحان القيني ، وسليط بن سعد ،

---

١) الاغاني ٩ : ٤٠ - ١٥١ ؛ وشعراء النصرانية ٥١٠ ؛ والشعر والشعراء ٥٧ ؛ وزيدان : الاداب العربية ١ : ١٠٥ ؛ والروائع ٢٥

وابن زنق اخت طرفة ، وحنين بن بلوع الحيري ، وعبدالله الحر الجعفي ، والثرواني ، والحنائي ، وابن كناسة ، وابي نواس ، والسيد الشريف الرضي ، وابي العتاهية ، وابي قابوس العبادي النصراني الذي كان منطقاً الى البرامكة ، وغيرهم فنيرهم . فانت ترى من هذا كله ان ذكر الحيرة خالد عند العرب ما دام العرب يتغنون باشعار الجاهلية ويفخرون بمعلقاتهم .

الامثال العربية والحيرة

لا يخلد ذكر الحيرة في الآداب العربية بمدارسها ، وبالخط المنسوب اليها ، ولا بعلاقة الشعراء وقصائدهم ومعلقاتهم ومجمهراتهم ومفضلياتهم بها فحسب ، بل هناك طائفة كبيرة من الامثال السائرة في لغة الضاد نشأت في الحيرة نفسها ، او هي وليدة حوادث لها مساس بتاريخ الحيرة ، او ان مخيلة المفكرين اخترعت تلك القصص لربط الامثال بها .

ومهما كان الحال فذكر الحيرة وذكر ملوكها وامرائها مرتبط بالآداب العربية وامثالها بروابط متينة العرى متجدولة القوى . ومن تلك الامثال ما قيل في حادثة الزباء . وجذيمة الابرش وقصير وهي « رأي فاتر ، وعدوّ حاضر » — « رأيك في الكنّ لا في الضح » — « قصير لا يطاع لقصير امر » — « بقية ابرم الامر » — « بقية تركت الرأي » — « خطر يسير ، وخطب كبير » — « ويل امه على متن العصا » — « ما ضلّ من تجري به العصا » — « بلغ المدى ، وجف الثرى ، وامر غدر ارى » — « امنع من عقاب الجوّ » — « لامر جدع قصير انفه » الى غير ذلك[1] . وقد نسب الى الزباء المثل « بيد لا بيد عمرو »[2] .

ومثل نشأة هذه الامثال ورد في سيرة عبيد الابرص وحكايته مع ملك الحيرة . ومن تلك الامثال : « اتتك بحائن رجلاه » — « حال الجريضُ دون القريض » — « بلغ الحزام الطبيين » — « المنايا على الحوايا » — « لا يرحل رحلك من ليس معك » — « من عزّ بزّ »[3] .

---

١) ابن الاثير ١ : ١٢٧ — ١٢٨ ٢) الاغاني ١٤ : ٢٣

٣) الاغاني ١٩ : ٨٧

وقال طرفة لما كان ينشد المسيّب بن علس في الحيرة امام عمرو بن هند شعراً في وصف الجمل ثم انتقل الى نعت الناقة : « قد استنوق الجمل »[1] . ونشأ في الحيرة المثل القائل « قد يضرط الحمار والمكواة في النار » قاله مسافر ابن عمرو بن أمية عندما أريد كيّه في الحيرة[2]. وقيل المثل « اتبع الفرس لجامها والناقة زمامها » لما أريد استرجاع سلمى بنت وائل، الصائغ من فداك ، من أسرها وهي التي اضحت بعد ذلك زوج المنذر بن امرئ القيس الثاني وام النعمان بن المنذر[3].

ومن الامثال التي نشأت وقائعها في الحيرة « حتى يؤوب المُنخّل » — « افخر من حارث بن حلّزة » — « جزاء سِنمّار »[4] — « تسمع بالمعيدي خير من ان تراه »[5] — « ابطش من درمر »[6] — « افتك من الحرث بن ظالم »[7] — « اعزّ من حايمة »[8] — « اعزّ من مروان بن القرط »[9] — « اخيب من حنين »[10].

وهناك طائفة غير هذه من الامثال نشأت في الحيرة لا يسعنا ان نوردها كلها لضيق المقام ، فلتراجع في مظانّها.

الخطابة

الخطابة قسم من آداب اللغة احتاج اليها المتكلمون بلغة الضاد للمفاخرة بالاحساب والآداب في المجالس والاندية العامّة والخاصة ولايفاد الوفود . وللمناذرة ، ملوك الحيرة ، منزلة في تاريخ الخطابة عند العرب. وقبل ان نذكر شيئاً في هذا الباب لا بُدّ لنا من التنويه باننا لا نسلّم مستسلمين بصدق الروايات التي ننقلها عن الادباء والمؤرخين ولا نثبت بصحتها كأنها حقائق تاريخية باجمعها، بل نعتقد ان هناك طائفة من الروايات والمرويّات وضعت لغايات مقصودة

١) الاغاني ٢١ : ١٢١
٢) الاغاني ٨ : ٤٧
٣) الميداني ١ : ٨٩
٤) الميداني ١ : ١٠٧
٥) » ١ : ٨٦
٦) » ١ : ٨٧
٧) » ٣ : ٢٤
٨) » ١ : ٢٢١
٩) الميداني ١ : ٢٢١
١٠) » ١ : ١٧٢

على السنة بعض مشاهير الرجال . وقد تكون الرواية التي نستشهد بها هنا من هذا القبيل كلها او بعضها . ولكن هناك حقيقة لا نتمكن من انكارها وهي ان تكرار ذكر ملوك الحيرة في الآداب العربية لدليل باهر على مقامهم السامي وموقفهم الرفيع في اذهان العرب . وبعد هذه الكلمة نقول :

قال ابن القطامي نقلاً عن الكلبي : قدم النعمان بن المنذر على كسرى ، وعنده وفود العرب والهند والصين ، فذكروا من ملوكهم وبلادهم . فافتخر النعمان بالعرب وفضلهم على جميع الامم لا يستثني فارس ولا غيرها فقال كسرى ، واخذته عزة الملك ، معدداً فضائل الامم ومفنطاً من حق العرب . فاجابه النعمان : أصلح الله الملك ، حق لامة الملك ان تسمو فضائلها ويعظم خطبها وتعلو درجتها . الا ان عندي جواباً في كل ما نطق به الملك في غير ردّ عليه ولا تكذيب له . فان امنني من غضبه ، نطقت به . قال كسرى : قل فانت آمن . فطفق النعمان يوصف فضائل العرب واخلاقهم وعزة نفوسهم بكلام بليغ . فعجب كسرى لما اجابه النعمان وقال : انك لاهل لموضعك من الرئاسة في اهل اقليمك ولما هو افضل . ثم كساه من كسوته وسرحه الى موضعه من الحيرة .

فلما قدم النعمان الحيرة وفي نفسه ما فيها مما سمع من كسرى من تنقص العرب وتهجين امرهم بعث الى اكثم بن صيفي وحاجب بن زرارة التميميين ، والى الحرث بن ظالم وقيس بن مسعود البكريين ، والى خالد بن جعفر وعلقمة بن علاثة وعامر بن الطفيل العامريين ، والى عمرو بن الشريد الكلبي ، وعمرو بن معدي كرب الزبيدي ، والحرث بن ظالم المري . فلما قدموا عليه في الخورنق قال لهم : قد عرفتم هذه الاعاجم وقرب جوار العرب منها ، وقد سمعتُ من كسرى مقالات تخوفت ان يكون لها غور او يكون انما اظهرها لامر اراد ان يتخذ به العرب خولاً كبعض طاطمته في تأديتهم الخراج اليه كما يفعل بملوك الامم . فاقتصّ عليهم مقالات كسرى وما ردّ عليه ، ودعا لهم بما في خزائنه من طرف حلل الملوك ، واعطى كل رجل منهم حلة ، وعممه عمامة ، وختمه بياقوتة ، وامر لكل رجل منهم بنجيبة مهرية وفرس

نجيبة ، وارسلهم الى كسرى وكتب معهم كتاباً . فلما صاروا الى مجلس كسرى خطب كل منهم خطبة آية في البلاغة والقوا من درر الكلام ما يزري بالجان ويصح ان تتخذ فصاحته منوالاً ينسج عليها[1] .

***

قصارى القول ان الحيرة كانت في عهد عزها وابان سلطانها مركزاً خطيراً للعلوم والمعارف وملتقى كبار الادباء ومشاهير الشعراء . وكان ملوكها منشطين الحركة الادبية العربية والحضارة ولاسيما في القرن السادس الميلاد . ولا نخطئ المحز ان ذهبنا الى ان الحفر في اطلالها يوقفنا على حقائق تاريخية يجهلها العلماء ، او انهم مختلفون في تعليلها ، سواء اكان في التاريخ او الآداب او فنون الرياضة والنقش والتزويق . فنختم مقالنا هذا بقول الاثري ثلبوت رايس[2] : « ان مشاكل كثيرة نجدّ اليوم في طلبها ولا نتوصل اليها ، ولكنّ حلولها تنتظرنا في بطن ارض الحيرة وبين ثنايا آثارها المدفونة . »

---

١) العقد الفريد ١ : ١٦٦ — ١٧٤ ؛ وزيدان : آداب اللغة العربية ١ : ١٦٩

٢) *Journal of the Royal Asiatic Society*, April 1932, p. 265